(عجبت لخصم لج في طلباته ... يصالح عنها بالمحال فيفصل) .

ومما أورد له في الإحاطة وذكر أنه لو رحل راحل إلى خراسان لما أتى إلا بهما .

(رعى ا إخوان الخيانة إنهم ... كفونا مؤونات البقاء على العهد) .

(فلو قد وفوا كنا أسارى حقوقهم ... نراوح ما بين النسيئة والنقد) .

وقد تمثل أبو البركات في مخاطبة له للسان الدين بقول القائل .

(أيتها إليه اذهبي ... فحبه المشهور من مذهبي) .

(أيأسني التوبة من حبه ... طلوعه شمسا من المغرب) .

وحكى غير واحد منهم ابن داود البلوي أن القاضي أبا البركات لما عزم على الرحلة إلى المشرق كتب إليه ابن خاتمة بما صورته .

(أشمس الغرب حقا ما سمعنا ... بأنك قد سئمت من الإقامة) .

(وأنك قد عزمت على طلوع ... إلى شرق سموت به علامه) .

(لقد زلزلت منا كل قلب ... بحق ا لا تقم القيامة) .

قال الحاكي فحلف أبو البركات أن لا يرحل من إقليم فيه من يقول مثل هذا انتهى يشير بقوله لقد زلزلت إلخ إلى طلوع الشمس من مغربها .

قلت ولما عزمت على هذا الرحلة كتب إلي بعض أصحابنا المغاربة بالأبيات المذكورة متمثلا ولم أرجع عن العزم وا غالب على أمره .

قال الوزير لسان الدين C تعالى وما أحسن قول شيخنا أبي البركات معتذرا عن زرقة عينيه .

(حزنت عليك العين يا مغني الهوى ... فالدمع منها بعد بعدك ما رقا)